مجلة جامعة *الملك* سعود، م ٦، *الآداب* (١)، ص ص ٤١-٧٢ (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).

شعرية ابن رشد بين التنظير والتطبيق: دراسة في شرح ابن رشد لكتاب أرسطو وتطبيقاته على الشعر العربي

سعاد عبدالعزيز المانع

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(ورد بتاريخ ١٤١٢/٨/١٩هـ، وقبل للنشر بتاريخ ١٤١٢/١١/٤هـ)

ملخص البحث. لقد رأى الباحثون في محاولة ابن رشد تطبيق ما جاء في كتاب أرسطو *في الشعر* على الشعر العربي منحى يتفرد فيه ابن رشد عن سلفيه في المشرق الفارابي وابن سينا. ولكنهم في الوقت ذاته لاحظو أن هذه التـطبيقات تبدو دليلاً على أن ابن رشد لم يحسن تمامًا فهم ما كان يتحدث عنه أرسطو، فهذه التطبيقات جعلته يبتعد ابتعادًا كبيرًا عن آراء أرسطو.

ولن يعنى هذا البحث بما سبق أن اهتم به الباحثون من ملاحظة التفاوت بين كتاب أرسطو وفهم ابن رشد له. ولكنه سيعنى بالتنظير الشعري الذي استوحاه ابن رشد من التراث الأرسطي للشعر بغض النظر عما إذا كان بعيدًا أو لم يكن عما أراده أرسطو، ومقارنته بالتطبيقات الشعرية التي يوردها لشرح هذا التنظير. ومن هنا يعرض البحث الحالي مفهوم الشعرية عند ابن رشد ومدى التطابق والاختلاف بين ما هو شائع في الشعر العربي وما تنطبق عليه قوانين الشعر الكلية حسب ما يراها ابن رشد. وكذلك مدى وجود أثر لآراء ابن رشد في النقد في المغرب العربي في القرنين التاليين عليه.

يتجسد في شرح ابن رشد لكتاب أرسطو *في الشعر* امتدادًا لجهود سلفيه في المشرق، الفارابي وابن سينا في محاولة استخلاص القوانين الكلية للشعر، ووضع نظرية للشعر، إن لم تكن مطابقة لكل ما جاء في كتاب أرسطو فهي تتمثل اجتهادًا في فهم الشعر وسعيًا نحو التنظير

له.[١] ولقد اختتم ابن سينا تلخيصه لكتاب «في الشعر» بقوله: «ولا يبعد أن نجتهد نحن فنبتدع في علم الشعر المطلق، وفي علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان كلامًا شديد التحصيل والتفصيل.»[٢] وعبارة ابن سينا هذه تدل على أنه لم ينظر إلى شرحه على أنه التنظير النهائي للشعر. ولكنه كان يرى أن «علم الشعر المُطلق» و «علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان» مازالا بحاجة منه إلى «أن يجتهد» يومًا فيوصله اجتهاده في هذا المجال إلى أن يبتدع فيهما «كلامًا شديد التحصيل والتفصيل.»

وإذا كان ابن سينا لسبب من الأسباب لم يحقق ما كان بوده أن يحققه تجاه تنظير الشعر،[٣] فإن عبارته السابقة ظلت مؤشرًا يدل على أن الشعر، سواء في كلياته «علم الشعر المطلق» أو في خصوصياته «الشعر العربي،» مازال توجد فيه نواح تحتاج إلى فيلسوف أو ناقد يجتهد فيبدع في التنظير لها.[٤] ومع أن ابن رشد في كتابه لم يشر إلى ابن سينا ولا إلى عبارته السابقة، ولكن يغلب على الظن أنه اطلع على تخليص ابن سينا.[٥] ولا يبعد أن تكون عبارة

---

(١) انظر عن الفلاسفة المسلمين وجهدهم في التنظير للشعر كتاب: ألفت كمال الروبي، *نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، من الكندي حتى ابن رشد* (بيروت: دار التنوير، ١٩٨٣م).

(٢) ابن سينا، «فن الشعر في كتاب الشفاء» ضمن كتاب عبدالرحمن بدوي، *أرسطوطاليس - فن الشعر* (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣م)، ص١٩٨.

(٣) لقد هاجم عبدالرحمن بدوي ابن سينا لكونه تقاعس عن أن يحقق ما وعد به في العبارة السابقة. عبدالرحمن بدوي، «ابن سينا» و«فن الشعر» لأرسطو ضمن *الكتاب الذهبي - ابن سينا، المهرجان الألفي لذكرى ابن سينا - بغداد ١٩٥٢م* (القاهرة: الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، ١٩٥٢م)، ص ص ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١١١.

(٤) عبارة ابن سينا السابقة أوردها حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) وعقّب عليها بقوله: «وقد ذكرت في هذا الكتاب من تفاصيل هذه الصنعة ما أرجو أنه من جملة ما أشار إليه أبو علي ابن سينا.» انظر كتابه: *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة (تونس: دار الكتب الشرقية، ١٩٦٦م)، ص٧٠.

(٥) ذكر شكري عياد أن المقارنة النصية تدل على اطلاع ابن رشد على تلخيص ابن سينا، كتاب *أرسطوطاليس في الشعر نقل أبي بشر متى بن يونس القنائي من السرياني إلى العربية*، حققه مع ترجمة حديثة ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية، شكري عياد (القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م)، ص٢١٥. مع ذلك يفترض شكري عياد أنه، إذا كان ابن رشد لم يطلع=

ابن سينا السابقة هي ما أوحى إلى ابن رشد أن يطبق ما جاء في كتاب أرسطو على الشعر العربي.[٦]

لقد لفتت محاولة ابن رشد تطبيق ما جاء في كتاب أرسطو على الشعر العربي أنظار الباحثين في هذا المجال. ففي مجال مقارنة ابن رشد بابن سينا يقول عبدالرحمن بدوي: «ولهذا فاق ابنُ رشد في هذه الناحية، لأن ابن رشد بذل وسعه في التماس أوجه الشبه بين ما يورده أرسطو عن الشعر اليوناني وبين ما عسى أن يناظره في الشعر العربي، فأكثر من

— على تلخيص ابن سينا، وأنه اعتمد على تلخيص الفارابي (لم يصل إلينا)، فهذا يعني أن تلخيص ابن سينا كان تكرارًا لآراء الفارابي (ص٢١٦، س س ١ ـ ٤). ولكن يمكن الملاحظة أن ابن رشد وابن سينا يتفقان في تلخيصهما حول فكرة نشوء الشعر عند الأمم، في حين أن الفارابي يختلف عنهما كليهما. فالفارابي يفترض أن الصناعة الخطبية تنشأ أولا «تحدث فيهم أولا من الصنائع القياسية صناعة الخطابة بعد ذلك تحدث صناعة الشعر.» انظر: الفارابي، *الحروف*، تحقيق محسن مهدي (بيروت: دار المشرق، ١٩٦٩م)، ص١٤٢.

أما ابن رشد وابن سينا، فكل منهما يذكر أن التخييلات الشعرية تنشأ أولًا ثم تليها صناعة الخطابة. يقول ابن سينا، «فإن الأولين إنما كانوا يقررون الاعتقادات في النفوس بالتخييل الشعري، ثم نبغت الخطابة بعد ذلك، فزاولوا تقرير الاعتقادات في النفوس بالإقناع.» «الشفاء» (بدوي، *فن الشعر*، ص١٧٩). ويقول ابن رشد «وقد كان الأقدمون من واضعي السياسات يقتصرون على تمكين الاعتقادات في النفوس بالأقاويل الشعرية، حتى شعر المتأخرون بالطرق الخطبية.» *تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر*، تحقيق محمد سليم سالم (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص٥٥. وما لم يكن للفارابي تفسير آخر لعبارته السابقة أو رأي آخر يطابق ما ذكره ابن سينا هنا فإن هذا يرجح أن ابن رشد اطلع على شرح ابن سينا.

(٦) يصعب القطع بالسبب الذي جعل ابن رشد يغفل الإشارة إلى ابن سينا، ولكن من المعروف لدى الباحثين في هذا المجال أن ابن رشد يخالف ابن سينا وينتقده في عدد من النواحي الفلسفية. انظر حول الاختلاف: محمود قاسم، *نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الاكويني*، ط٢ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د. ت.)، ص ص ٩٧، ٩٩، ١٠٦، ١٦٩؛ ومحمد عاطف العراقي، *المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م)، ص ص ٢٠٠ - ٢٠٢، ٢٢٨.

الشواهد.»[٧] ويقول شكري عياد: «إن ما في تلخيص ابن رشد من جديد هو محاولته أن يطبق بعض الأفكار التي فهمها من كتاب أرسطو على نماذج من الأدب العربي، وتعمقه بعض الأفكار التي اضطرب في فهمها ابن سينا أو مسها مسًّا خاطفًا.»[٨] كذلك رأى إحسان عباس في تطبيقات ابن رشد لكتاب أرسطو على الشعر العربي ما يلفت النظر إلى مدى ارتباط ذهن ابن رشد بالواقع في الشعر العربي.[٩] ولكن تجدر الإشارة إلى أنه مع تقدير هؤلاء الباحثين لجهد ابن رشد في تطبيقاته على الشعر العربي، إلا أنهم يتفقون مع بقية الباحثين أن ابن رشد أخفق في أن يفهم ما أراده أرسطو.[١٠]

والبحث الحالي لن يعنى بتتبع مدى فهم ابن رشد لآراء أرسطو أو إخفاقه في الفهم، ولكنه سيعنى بتتبع شرحه لها وتطبيقاته على الشعر العربي، سواء كان ابن رشد وُفق في فهم أرسطو أو لم يكن. فهذا الشرح والتطبيق يقدم ـ أيًّا كانت درجة فهم ابن رشد لآراء أرسطو ـ رؤية ما للشعر. وقد تكون هذه الرؤية تحمل مزيجًا مما هو موجود في التراث النقدي العربي، ومما هو موجود في ترجمة كتاب أرسطو وبخاصة مما هو موجود في الشروح العربية حول آراء أرسطو في الشعر، ولكن هذه الرؤية تظل تحمل أيضًا تصور ابن رشد الخاص للشعر العربي في إطار رؤيته لما عده القوانين الكلية للشعر.

وسيتطرق البحث الحالي إلى النواحي التالية:

ـ مفهوم الشعرية وقوانين الشعر الكلية عند ابن رشد.

---

(٧) بدوي، «ابن سينا،» ص١١١.

(٨) عياد، *كتاب أرسطوطاليس*، ص٢٢٠.

(٩) إحسان عباس، *تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن* (بيروت: دار الأمانة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص٥٢٩.

(١٠) راجع ألفت الروبي، *نظرية*؛ بدوي، «ابن سينا»؛ عباس، *تاريخ*؛ وكذلك عياد، *كتاب أرسطو طاليس*، ص٢١٥. وانظر أيضًا: ابن رشد، *تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر*، تحقيق محمد سليم سالم، ص ص٧١، هامش (١)؛ ٩٦، هامش (٢)؛ ٥٨، هامش (١). وانظر: Dimitri Gutas, "On Translating Averroes' Commentaries," *Journal of the American Oriental Society,* 110, No. 1 (1990), 94-97.

ـ مدى التطابق والاختلاف بين القوانين الكلية للشعر في رأيه وبين ما هو شائع في الشعر العربي.

ـ صدى آراء ابن رشد حول الشعر العربي عند حازم القرطاجني.

الشعرية وقوانينها في مفهوم ابن رشد

يفهم ابن رشد الشعرية(١١) على أنها نزعة توجد في الطبيعة البشرية، ومن هنا فإن لها قوانين كلية تحكمها. وهذه القوانين ليست قوانين وضعية مفروضة، وإنما هي قوانين مستمدة من الشعر نفسه.(١٢) وهو يدرك أن هناك تفاوتًا بين أشعار الأمم حسب تفاوت الأزمان والعادات واختلاف النزعات، ولكنه يرى أن هذا التفاوت إنما يتصل بنواح جزئية؛ أما الكليات التي تحكم الشعر، فهي تعم الجميع. وهو يرى أن كتاب الشعر وإن تحدث فيه أرسطو عن القوانين الخاصة بأشعار اليونانيين، فإنه يمكن أن تُستخلص منه القوانين

---

(١١) آثرت استعمال كلمة «الشعرية» لكونها وردت في استعمال ابن رشد، فهو يذكر أن بعض الأشعار «ليس فيها من معنى الشعرية إلا الوزن فقط (شعر، ص٨٩). انظر أيضًا (ص٥١) حديثه عن السبب المولد للشعر في قوة الإنسان حيث يقول «فمن هاتين العلتين تولدت الشعرية . . . وانبعثت الشعرية منهم بحسب غريزة كل واحد منهم.» ابن سينا، *فن الشعر*، ص١٧٢. والشعرية في مفهوم الكتابات النقدية المعاصرة في الغرب ويعبر عنها المصطلح الإنجليزي poetics ترد على أنها متصلة بجوهر الأدب والشعر وهي أقرب إلى معنى النظرية الشاملة للأدب. انظر: Roger Fowler, ed. *A Dictionary of Modern Critical Terms* (London: Routledge, 1990), pp. 184-186; وكذلك Tzvetan Todorov, *The Poetics of Prose*, translated from the French by Richard Howard (New York: Cornell University Press, 1980), pp. 9-11.

(١٢) ذكر خليل هنداوي أن ابن رشد يريد فرض قوانين الشعر اليوناني على الشعر العربي، وأن هذا هو ما جعل هذه القوانين الغريبة لا تلقى نجاحًا. (اشتغال العرب بالأدب المقارن) ضمن «وثائق من النقد العربي الحديث،» توثيق وتعليق حسام الخطيب، مجلة *فصول*، مج٩، ع ع٣، ٤ (١٩٩١م)، ص٢٧٥ ا، ب. ولكن ما عدَّه ابن رشد قوانين كلية للشعر، إنما هو مأخوذ في رأيه من استقراء الأشعار عند الأمم وهو يماثل القوانين اللغوية التي تؤخذ من استقراء الاستعمالات اللغوية. ومن وجهة نظر ابن رشد ليست هذه القوانين خاصة بالشعر اليوناني، ولكنها مستمدة من الشعر نفسه كما هو في الغريزة البشرية.

الكلية التي تشمل الشعر لدى جميع الأمم أو أكثرها، إذ أن أرسطو في رأيه يعبّر عما هو موجود لدى الأمم الطبيعية وليس عما هو خاص بأشعار اليونانيين وحدهم «فإنه ما كان ليثبت في كتابه هذا ما هو خاص بهم بل ما هو مشترك للأمم الطبيعية.»(١٣)

وابن رشد يشير إلى أن القوانين التي تخص الشعر والموجودة في اللسان العربي قليلة إذا ما قيست بالقوانين التي وردت في كتابي أرسطو في *الشعر* و*الخطابة*. وتلخيصه لكتاب الشعر يراه مفيدًا في إظهار القوانين الكلية للشعر. وعلى هذا سيكون الكتاب مرجعًا لمعرفة ما جاء من القوانين الخاصة بالشعر في اللسان العربي على وجه الصواب مما جاء على غير هذا الوجه. يقول ابن رشد: «وأنت تتبين إذا ما وقفت على ما كتبناه ها هنا أن ما شعر به أهل زماننا من القوانين الشعرية بالإضافة إلى ما في كتاب أرسطو هذا وفي كتاب (الخطابة) نزر يسير كما يقول أبو نصر. وليس يخفى عليك أيضًا كيف ترجع تلك القوانين إلى هذه ولا ما ذكروا من ذلك على وجه الصواب مما ذكر على غير ذلك.»(١٤)

تشمل الشعرية عند ابن رشد «القول الشعري» والشعر. و«القول الشعري» ليس مرادفًا تمامًا للشعر، وإنما هو القول الذي يحمل التخييل (سواء كان متصلاً بالوزن أو لم يكن.) وعلى هذا فالقول الشعري يحمل مقابلة للأقاويل الأخرى مثل القول الخطابي والقول البرهاني والقول الجدلي. أما الشعر فهو لا يكون إلا باجتماع جانبين: أحدهما القول الشعري (القول الذي يحمل التخييل) والآخر، الوزن (أو الوزن مع اللحن). ومع أنه من الطبيعي أن يكون المكان الأساسي للقول الشعري هو الشعر (حيث يتحد القول الذي يحمل التخييل مع الوزن، أو مع الوزن واللحن) إلا أن القول الشعري يوجد أحيانًا في غير الشعر كما هو الحال عندما توجد أقاويل شعرية في الخطابة.(١٥)

---

(١٣) ابن رشد، شعر، ص١٥٧. ويغلب على الظن أن ما يقصده بالأمم الطبيعية هو ما ذكره الفارابي (ت٣٣٩هـ) عن الأمم التي تعيش في خطوط عرض ليست قريبة من خط الاستواء ومن القطب «فإن هؤلاء الأمم هم الذين عيشهم وشربهم وأغذيتهم على المجرى الطبيعي،» وهم «الذين ينبغي أن يجعل ما يحسونه من الملائم وغير الملائم هو الطبيعي للإنسان» *كتاب الموسيقى الكبير*، تحقيق وشرح غطاس عبدالله خشبة (القاهر: دار الكاتب العربي، د. ت.)، ص ص ١٠٨ ـ ١١٠.

(١٤) ابن رشد، شعر، ص١٦٣.

(١٥) انظر تعليقة **٢٩** من هذا البحث.

ولهذا فإن القوانين التي يعرضها ابن رشد للشعرية تتصل بناحيتين: إحداهما إيضاح طبيعة القول الشعري ذاته (وهو قد يوجد أحيانًا في غير الشعر)، والثانية هي إيضاح أنواع الشعر نفسه وأبنيته القولية المختلفة.

وهناك جوانب ثلاثة مترابطة تنبثق عنها قوانين الشعرية عند ابن رشد. هذه الجوانب هي التخييل والمحاكاة، والهدف الخلقي، والتغيير اللغوي؛ وهي مرتبطة تمام الترابط بعضها ببعض لكونها تصدر عن النزعة الطبيعية عند غالب الأمم نحو الشعر. ذلك أن المحاكاة والتخييل ملتبسان بالهدف الخلقي، والتغيير اللغوي هو النسيج الذي تصدر عنه المحاكاة والتخييل.

التخيل والمحاكاة

يستعمل ابن رشد «القول المخيل» و«القول المحاكي» ليعبر كل منهما عن «القول الشعري» ومع ذلك «فالتخييل ليس هو مرادفًا تمامًا» للمحاكاة.

وذلك أن التخييل هو ما يجعل ذهن المتلقي (السامع أو القارىء) يستحضر صورًا مرتبطة بمشاعر معينة تحدث تأثيرًا نفسيًّا معينًا؛ أما المحاكاة فهي وسيلة استحضار صور الأشياء إلى ذهن المتلقي التي يحدث من خلالها التخييل. والتخييل والمحاكاة يحدثان في الوزن وفي اللحن وفي القول.(١٦)

وهو يذكر أصناف التخييل في القول على أنها: «ثلاثة: اثنان بسيطان وثالث مركب منها.»(١٧) وهذه الأصناف الثلاثة تشمل الصور البيانية والمجازية وما يتركب منها.(١٨) وتتفاوت درجات التخييل عند ابن رشد. ذلك أن التخييل قد يحدث في مواضع غير الشعر ولكن يكون بمقدار محدود؛ أما أكثر درجات التخييل، فموضعها الشعر. فهو يقول في

(١٦) ابن رشد، شعر، ص٦٢.
(١٧) ابن رشد، شعر، ص٥٨.
(١٨) ابن رشد، شعر، ص ص٥٨، ٥٩.

كتاب *الخطابة* في حديثه عن التغيير في الألفاظ «والصناعة الشعرية تستعمل في ذلك ما هو أكثر تخييلاً وأما صناعة الخطابة فإنما تستعمل من ذلك ما هو أقل وبمقدار ما يليق بها.»(١٩) وابن رشـد ينص على أن «الأقـاويل الشعرية هي الأقاويل المخيلة.»(٢٠) ولكن الأقاويل المخيلة لا تبلغ درجتها القصوى من التخييل إلا بالوزن «الشاعر لا يحصل له مقصوده على التمام من التخييل في الشعر إلا بالوزن.»(٢١)

أما إذا خلا القول من التخييل فهو لا يصبح شعرًا في حقيقة الأمر حتى وإن اتصل بالوزن «وكثيرًا ما يوجد من الأقاويل التي تسمى أشعارًا ما ليس فيها من معنى الشعرية إلا الوزن فقط . . . ولذلك ليس ينبغي أن يسمى (شعرًا) بالحقيقة إلا ما جمع هذين، وأما تلك فهي إن تسمى (أقاويل) أحرى منها أن تسمى (شعرًا).»(٢٢)

على أن حديث ابن رشد عن أصناف التخييل هذه يعني في الوقت ذاته «أصناف المحاكاة» في الشعر، فالتخييل عنده لا يكون في القول الشعري إلا من خلال المحاكاة. ومن هنا لا يبدو غريبًا أن يختتم الحديث الذي عرض فيه «أصناف التخييل» بأن يقول: «فقد تبين من هذا القول: كم أصناف المحاكاة.»(٢٣)

بعـد ذلـك يذكـر ابن رشـد أن فصـول المحـاكاة ثلاثة، وهي التحسين والتقبيح والمطابقة.(٢٤) والتحسين والتقبيح يرتبطان عنده بالهدف الخلقي للشعر، وهو حث الناس «على عمل بعض الأفعال الإرادية وأن يكفوا عن عمل بعضها.»(٢٥) وهو يرى أن «كل ما

---

(١٩) ابن رشد، شعر، ص٢٦١.
(٢٠) ابن رشد، شعر، ص٥٧.
(٢١) ابن رشد، شعر، ص٨٩.
(٢٢) ابن رشد، شعر، ص ص٦٢، ٦٣.
(٢٣) ابن رشد، شعر، ص٦٤.
(٢٤) ابن رشد، شعر، ص ص٦٤، ٦٨.
(٢٥) ابن رشد، شعر، ص٦٥.

يقصد محاكاته من الأفعال الإرادية هو إما فضيلة وإما رذيلة . »[٢٦] وإذن فمن خلال محاكاة الفضائل ومحاكاة الرذائل يحدث التأثير في المتلقين وحثهم على الفضائل من خلال تحسينها وتنفيرهم من الرذائل من خلال تقبيحها .[٢٧] وأما المطابقة، وهي الفصل الثالث للمحاكاة، فلا يراها ابن رشد تقوم بدور فعّال في الهدف الخلقي، ولكنه يرى أنها «كالمادة المعدة لأن تستحيل . . . تارة إلى التحسين بزيادة عليها، وتارة إلى التقبيح بزيادة أيضًا عليها . »[٢٨]

ومن هنا نجد «المطابقة» يمكن أن تكون في انسجام مع الثنائية التي يراها في قسمة الأفعال الإرادية إلى فضيلة ورذيلة تجنح المحاكاة لها إلى التحسين والتقبيح .

الهدف الخلقي

عندما يشرع ابن رشد يذكر قوانين الشعر، يلفت النظر أنه جعل قسمة ثنائية تحتم على كل شعر، وكل قول شعري، أن يكون إما هجاء وإما مديحًا «فكل شعر وكل قول شعري فهو: إما هجاء وإما مديح . »[٢٩] وينص ابن رشد على أن هذا القانون «بيِّن» أخذه

---

(٢٦) ابن رشد، شعر، ص٦٥، س س٦، ٧ .

(٢٧) ابن رشد، شعر، ص٦٥ .

(٢٨) ابن رشد، شعر، ص٦٦ .

(٢٩) ابن رشد، شعر، ص٥٦، س٦ . وتجدر الملاحظة أن هذه القسمة الثنائية لا توجد عند الفارابي ولا ابن سينا ولا في ترجمة متى بن يونس لكتاب أرسطو. راجع : الفارابي، «مقالة في قوانين صناعة الشعراء، » في *فن الشعر* لعبدالرحمن بدوي حيث عدد أصناف أشعار اليونانيين، ص ص ١٥٢ - ١٥٥ ، ولم يقصرها على المديح والهجاء . كما ذكر أن تنوع أصناف الشعر من جهة المعنى يُترك استقصاؤها «للعالم بالرموز والمعبر بالأشعار والناظر في معانيها والمستنبط لها في أمة وعند طائفة طائفة، » ص١٥٢ . وراجع ابن سينا حيث يقول، «واليونانيون كانت لهم أغراض محدودة يقولون فيها الشعر، وكانوا يخضعون كل غرض بوزن على حدة . » ثم يعدد أصناف أشعار اليونانيين بما يشبه ما أورده الفارابي . بدوي، *فن الشعر*، ص ص ١٦٥ - ١٦٧ ؛ وراجع أبي بشر متى بن يونس القنائي، *كتاب أرسطو طاليس في الشعر*، تحقيق عياد، ص٢٩ ؛ (وأيضا ضمن : بدوي، *فن الشعر*، ص ص ٨٥، ٨٦) حيث يقول «فكل شعر، وكل نشيد شعري ينحي به إما مديحًا، وإما هجاء، (و) إما ديثرمبو الشعري . » وعبارة ابن رشد يبدو فيها شيء من المشابهة لعبارة متى، ولكن متّى هنا يضيف «ديثرمبو الشعري» إضافة إلى أن سياق عبارة متى لا يظهر فيها إطلاقًا فكرة قسمة-

أرسطو من «استقراء الأشعار، وبخاصة أشعارهم [اليونان] التي كانت في الأمور الإرادية.»(٣٠)

وما يقصده ابن رشد بالمدح والهجاء، ليس هو معناهما المتداول في مصطلح الشعر العربي وإنما يقصد بهما عمومًا «مدح الفضائل وهجو الرذائل،»(٣١) و«مديح الأفعال الجميلة» و«هجاء الأفعال القبيحة.»(٣٢) ومن هنا فإن هذه القسمة لا تعني إطلاقًا أن أنواع الشعر محصورة في نوعين هما المدح والهجاء، وإنما يعني أن الشعر عنده بجميع أغراضه يمكن أن ينضوي إجمالاً تحت هاتين الناحيتين: مديح الأفعال الجميلة وهجاء الأفعال القبيحة.

من الواضح أن هذه القسمة تتعلق بالهدف الخلقي للشعر. وابن رشد لا يرى الهدف الخلقي أمرًا خارجيًّا يفرض على الشعر، وإنما يراه أمرًا موجودًا في نزعة الأمم الطبيعية نحو الشعر، ذلك أن النفوس الفاضلة تتجه بطبيعتها لمحاكاة الفضائل. يذكر ابن رشد في سياق حديثه عن تولد صناعة الشعر في الأمم الناشئة «أن النفوس التي هي فاضلة وشريفة بالطبع هي التي تنشىء أولاً صناعة المديح أعني مديح الأفعال الجميلة. والنفوس التي هي أخس من هذه هي التي تنشىء صناعة الهجاء، أعني هجاء الأفعال القبيحة.»(٣٣)

ومع أن مصطلحي «صناعة المديح» و«صناعة الهجاء» يقصد بهما ابن رشد «التراجيديا» و«الكوميديا» عند أرسطو، لكن هذا لا يعني أنه يرى أن أنواع الشعر مقصورة

ـ الشعر والقول الشعري إلى المديح والهجاء. حول كلمة «ديثرمبو» راجع شرحها عند الفارابي في بدوي، *فن الشعر*، ص١٥٣، وعند ابن سينا، *فن الشعر*، ص ص ١٦٦ ـ ١٦٩، وكلاهما يذكرها (ديثرومبو) وانظر شرحها في ترجمة عبدالرحمن بدوي «الديثرمبوس،» *فن الشعر*، ص١، هامش٦.

(٣٠) ابن رشد، شعر، ص٥٧.

(٣١) ابن رشد، شعر، ص ص٦٥، ٧٥، س س ٧ ـ ١٠.

(٣٢) ابن رشد، شعر، ص٧١.

(٣٣) ابن رشد، شعر، ص٧١.

عليها. (٣٤) وإنما هو، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، يرى أن جميع أنواع الشعر قابلة لأن تظهر فيها هذه القسمة، مدح الأفعال الفاضلة، وذم الأفعال القبيحة.

التغيير اللغوي

يوضِّح ابن رشد القول المختلف أو المغير بأنه القول الشعري. (٣٥) وما يقصده بالاختلاف أو التغير هو كونه مختلفًا عن القول الحقيقي، والقول الحقيقي يعني به القول المباشر المتعارف عليه بين الناس الذين يتكلمون اللغة نفسها.

ويوضِّح التغييرات التي تحدث للقول الحقيقي فتحوله إلى قول شعري بأنها «تكون بالموازنة والموافقة والإبدال والتشبيه، وبالجملة بإخراج القول غير مخرج العادة، مثل القلب والحذف والزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير وتغيير القول من الإيجاب إلى السلب ومن السلب إلى الإيجاب، وبالجملة من المقابل إلى المقابل وبالجملة بجميع الأنواع التي تسمى عندنا مجازًا.»(٣٦)

ويرى ابن رشد أنه في حديثه عن التغييرات، إنما يقف عند الكليات المتصلة بها لأنه ليس يخفى على القارىء «أنواعها البسيطة المركبة المحصورة في هذه الكليات. ويشبه أن يكون إحصاء أنواعها الأخيرة عسيرًا جدًّا، ولذا اقتصر هنا على الكليات فقط.»(٣٧)

وإذن فإن ما يورده ابن رشد في حديثه عن طبيعة القول الشعري، هو الكليات(٣٨) المتصلة بالشعر أو بالقول الشعري. وعند مقارنة ما يذكره هنا عن التغيرات بما يذكره من

(٣٤) يقول ابن رشد عن أرسطو إنه «ذكر فروقًا ما بين صناعة المديح وبين صنائع الشعر الأخر عندهم وخواص تختص بها تلك الأشعار الأخر. . .،» شعر، ص١٦٥. وهذه العبارة تتضمن ملاحظة ابن رشد وجود أنواع من الشعر الأخرى إلى جانب «صناعة المديح» و«صناعة الهجاء.»

(٣٥) ابن رشد، شعر، ص١٤٩، س س ٦، ٧.

(٣٦) ابن رشد، شعر، ص١٥١، س س ٣ ـ ٦.

(٣٧) ابن رشد، شعر، ص١٥٢.

(٣٨) مع ذلك لاحظت ألفت الروبي في سياق مقارنتها لابن رشد مع الفارابي في مجال لغة الشعر، أن ابن رشيد يتميز بإيراد تفصيلات لانجدها عند الفارابي، *نظرية الشعر*، ص١٦٦.

قبل عن أصناف التخييل نجد الإشارة إلى الإبدال والتشبيه والمجاز تتكرر هنا وهناك. ذلك أنه يرى أن التخييل والمحاكاة إنما يحدثان في القول من خلال هذه التغيرات وهو يرى أن الأشعار المحركة لابد أن تحوي هذه التغيرات «وما عدا من هذه التغييرات فليس فيه من معنى الشعرية إلا الوزن فقط.»[٣٩]

الشعر العربي وقوانين الشعرية

يظهر في تلخيص ابن رشد وعيه بوجود اختلافات شتى بين الشعر العربي والشعر اليوناني، وأنه لم يكن بصدد المطابقة بين الشعرين. فقد لاحظ ابن رشد أن عددًا من قوانين الشعر التي يذكرها أرسطو لاتوجد في أشعار العرب مثل التناسب بين الأوزان وموضوعات الشعر،[٤٠] وكذلك أجزاء «صناعة المديح،»[٤١] ومدائح الفضائل.[٤٢] لكن ابن رشد كان بصدد استخلاص القوانين الكلية للشعر وحدها، وهي ما يرى أنها معيار للشعر وأنها يمكن أن تنطبق على شعر معظم الأمم.

الشعر العربي والتغير اللغوي

يمكن القول إنه في التغيرات اللغوية لم يصادف ابن رشد ما يجعله يرى في الشعر العربي اختلافًا عما يراه هو من القوانين الكلية للشعر ومن هنا كانت شواهده تعتمد على إيضاح ما يشير إليه من قوانين. وما رآه من اختلافات بين ما ذكره أرسطو عن بعض النواحي اللغوية وما هو موجود في الشعر العربي رده ابن رشد ببساطة إلى الاختلاف بين اللغة العربية واللغة اليونانية[٤٣] دون أن يكون لذلك علاقة بقوانين الشعر.

(٣٩) ابن رشد، شعر، ص١٥١، س س ١ ـ ٢.
(٤٠) ابن رشد، شعر، ص١٥٦.
(٤١) ابن رشد، شعر، ص٩٨، س٥.
(٤٢) ابن رشد، شعر، ص١٠٥، س٢.
(٤٣) هناك أمثلة على ذلك، مثل حديثه عن التصريف، ص١٣٧؛ وعن الاسم المعمول المرتجل، ص١٤٠؛ وعن الاسم المفارق والمعقول، ص١٤١؛ والأسماء المركبة، ص١٥٣.

ومن هنا جاءت الشواهد العربية إيضاحًا للتغييرات مثل الحذف، والقلب، والتقديم، والتأخير، والزيادة، والتغير من الإيجاب إلى السلب وجمع الأضداد في شيء واحد، وكون الضد سببًا للضد. (٤٤)

وقد سبقت الإشارة إلى أن التغيير اللغوي مرتبط تمامًا بعملية المحاكاة والتخييل وهو متصل بالقول الشعري، سواء في الشعر أو في غير الشعر. والتغيير في القول يحدث قليلاً في أنواع أخرى من القول مثل القول الخطابي ولكن كثافة التغيير وكثرته هو ما يميز القول الشعري. (٤٥)

ويورد ابن رشد ثلاثة شواهد من الشعر العربي، يوضح من خلالها الفرق بين القول الشعري (القول المغير) وبين القول الحقيقي (القول المعتاد المألوف).

الشاهد الأول هو:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

والشاهد الثاني: هو جزء من بيت شعر «بعيدة مهوى القرط.»

والشاهد الثالث: هو قول ابن المعتز:

يا دار أين ظباؤك اللعس قد كان لي في إنسها أنس

وفي تعليقات ابن رشد على الشواهد الثلاثة، يظهر في الشاهدين الأولين أنه يعمد إلى المقارنة بين القول الذي يؤدِّي رسالة مجردة وهو ما يطلق عليه «القول الحقيقي،» والقول الشعري الذي احتوى عليه الشاهد. فهو يقول عن الشاهد الأول «إنما صار شعرًا من قبل أنه استعمل قوله: أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا. وسالت بأعناق المطى الأباطح بدل قول: تحدثنا ومشينا.» ويقول عن الشاهد الثاني إنما «صار شعرًا لأنه استعمل هذا القول بدل قوله: «طويلة العنق».

(٤٤) ابن رشد، شعر، ص ص١٥١، ١٥٢.

(٤٥) ذكر ابن رشد تفصيلات حول التغييرات في كتابه *تلخيص الخطابة*، تحقيق عبدالرحمن بدوي (بيروت: دار القلم؛ الكويت: وكالة المطبوعات، د. ت.)، ص ص ٢٥٤ ـ ٢٧٢. وقد بين أن التغييرات المركبة خاصة بالشعر كما أن البسيطة خاصة بالخطابة (ص٢٥٥).

أما في الشاهد الثالث فهو يشرح التغييرات التي جعلت القول شعريًا دون أن يقارنها بالقول الحقيقي «إنما صار شعرًا لأنه أقام الدار مقام الناطق بمخاطبتها، وأبدل لفظ النساء بالظباء وأتى بموافقة الإنس والأنس في اللفظ.»(٤٦) ومن الواضح أنه لم يكن ممكنًا إيجاد خلاصة نثرية للبيت تفيد الرسالة المجردة أو «القول الحقيقي،» فالبيت يوجه الخطاب إلى الدار. والقول الحقيقي لا يوجه إلا إلى مخاطب يعقل ما يقال له.

إن ما يحمله تعليقه على الشاهد الثالث يوضِّح أن القول الشعري في مفهومه ليس لزامًا أن يكون له أصل من القول الحقيقي طرأ عليه التغيير فأصبح قولاً مختلفًا. وإنما هو يعني أن هذا القول المختلف أو القول الشعري قد يبنى أساسًا بطريقة تخالف بناء القول الحقيقي.

الشعر العربي والهدف الخلقي

يتجسم أهم ما رآه ابن رشد من اختلاف في الشعر العربي عن معايير القوانين الكلية للشعر في أن أكثر أشعار العرب لا يكاد يوجد فيها الهدف الخلقي. ذلك أن فصول المحاكاة الثلاثة لا تقوم في الشعر العربي بدورها الطبيعي من تحسين الفضائل وتقبيح الرذائل. بل إن فصلي التحسين والتقبيح في المحاكاة قد يقومان بتحسين ما هو غير أخلاقي، مثل شعر النسيب الذي يراه موافقًا رأي الفارابي، حثًا على الفسوق. يقول ابن رشد: «أكثر أشعار العرب إنما ـ هي كما يقول أبو نصر ـ في النهم والكريه. وذلك أن النوع الذي يسمونه: النسيب إنما هو حث على الفسوق. ولذلك ينبغي أن يجنبه الولدان.»(٤٧)

ونجده يكرر هذا الرأي في تلخيصه لكتاب جمهورية *أفلاطون* حيث يذكر أن أشعار العرب تجنح نحو الشرور ولذا يجب أن يجنبها الولدان حفاظًا على نشأتهم نشأة فاضلة.(٤٨)

(٤٦) ابن رشد، شعر، ص١٥٠.

(٤٧) ابن رشد، شعر، ص٦٧.

(٤٨) انظر *Averroes Commentary on Plato's Republic*, edited with an Introduction, Translation and Notes by E. I. Rosenthal (Cambridge: Cambridge University Press, 1969), pp. 130-33.

وهو يقرر أن أشعار العرب ليس فيها ما يشير إلى الفضائل غير الشجاعة والكرم. ومع ذلك فالشعراء لا يتكلمون فيها عن طريق الحث عليها، وإنما عن طريق الفخر. كما أن الفصل الثالث للمحاكاة وهو المطابقة يستعمل في الشعر العربي استعمالاً سلبيًا، فالشعراء لا يتجهون به إلى الحث على الفضائل وإنما إلى الوصف «ولذلك يصفون الجمادات كثيرًا والحيوانات والنبات.»(٤٩)

وما يدفع ابن رشد إلى الحكم على الشعر العربي بالقصور في الناحية الأخلاقية هو أن شعر اليونان وهو ما يراه تنطبق عليه قوانين الشعر الكلية، أكثره «موجه نحو الحث على الفضيلة، أو الكف عن الرذيلة أو ما يفيد أدبًا من الآداب أو معرفة من المعارف.»(٥٠) ويربط بين ما يراه من خلو أكثر أشعار العرب من مدائح الفضائل وبين الآيات القرآنية التي تعرضت للشعور بالذم يقول: «ولكون أشعار العرب خلية من مدائح الأفعال الفاضلة وذم النقائص أنحى الكتاب العزيز عليهم، واستثنى منهم من ضرب قوله إلى هذا الجنس.»(٥١)

إن ابن رشد يربط الشعر الجيد بالاتجاه الطبيعي نحو الخير ويرى أن قصورًا في الشعر العربي جعل أكثره ينصرف عن الاتجاه إلى الخير.(٥٢)

الشعر العربي، والمحاكاة والتخييل

في حديث ابن رشد عن القوانين المتصلة بالمحاكاة والتخييل، نجد أن التخييل وهو ما تقوم عليه الشعرية لا يحدث من أي نوع كان من المحاكاة، وإنما هو يحدث من محاكاة ما هو موجود أو ممكن الوجود. ذلك أن «الشاعر إنما يتكلم في الأمور الموجودة أو الممكنة الوجود،» لأن «المحاكاة التي تكون بالأمور المخترعة الكاذبة» ليست من فعل الشاعر.»(٥٣)

(٤٩) ابن رشد، شعر، ص٦٧.
(٥٠) ابن رشد، شعر، ص٦٨.
(٥١) ابن رشد، شعر، ص١٢٣؛ وانظر الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧ في سورة الشعراء.
(٥٢) تجدر الملاحظة أن ابن سينا لم يَسِم الشعر العربي بالقصور وإنما قال: «فإن العرب كانت تقول الشعر لوجهين أحدهما ليؤثر في النفس أمرًا من الأمور تعد به نحو فعل أو انفعال؛ والثاني للعجب فقط، فكانت تشبه كل شيء لتعجب بحسن التشبيه،» *فن الشعر*، ص١٧٠.
(٥٣) ابن رشد، شعر، ص٨٩، س س ٦، ٤، ٥.

وعلى هذا فالخرافات المخترعة لا تفيد الشاعر «فليس يحتاج التخييل الشعري إلى مثل هذه الخرافات المخترعة.»(٥٤) وحين يقارن بين الشعر وبين الأمثال والقصص(٥٥) على غرار ما في كتاب *كليلة* ودمنة، وهي ما يجعلها مثالاً على «المحاكاة التي تكون بالأمور المخترعة الكاذبة،» يرى أن هناك فارقًا أساسيًا بينهما وذلك أن ما هو مثل *كليلة* ودمنة يتم لمؤلفه عمله من خلال «التعقل،» الذي يستفاد من الأحاديث المخترعة، وأن الوزن إذا ما اتصل بمثل هذه الحكايات لا يضيف لها شيئًا يتمم عمل المؤلف. ويمكن الاستنتاج هنا أن محاكاة الأمور المخترعة الكاذبة في هذه القصص لا تحدث التخييل (وإنما التعقل) وبالتالي لاتتصل بالشعر. أما المحاكاة الشعرية، فهي التي تحدث التخييل، ولذلك فإن الوزن ضروري لها حتى يكتمل فيها التخييل. «والشاعر لا يحصل له مقصوده على التمام من التخييل إلا بالوزن.»(٥٦)

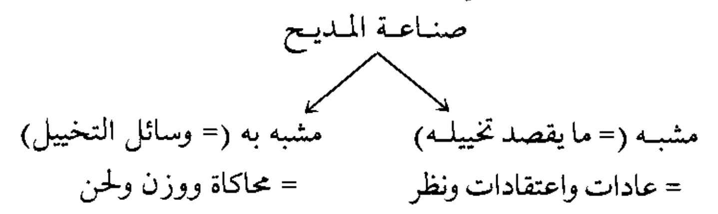
ويتوقف ابن رشد ليلاحظ أن ما ذكره أرسطو عن هذا إنما جاء حسب عادة اليونان في الشعر، ولكن هذا لا يتعارض مع أن يكون عامًا وطبيعيًا في الأمم. يقول ابن رشد: «وهذا الذي قاله هو بحسب عادتهم في الشعر الذي يشبه أن يكون هو الأمر الطبيعي للأمم الطبيعية.»(٥٧) وعلى هذا يظهر قانون المحاكاة والتخييل هنا قانونًا أساسيًا للشعر بجميع أنواعه وعند جميع الأمم الطبيعية.

وحين يتحدث ابن رشد عن المحاكاة في «صناعة المديح» وهو يفرد لها قسمًا ضخمًا من شرحه، نجد أيضًا قسمة ثنائية تتصل بالشعرية فهو ينص على أن: «كل قول شعري قد ينقسم إلى مشبه ومشبه به.»(٥٨) ولا يقصد هنا بكلمتي «مشبه ومشبه به» المصطلح البلاغي

---

(٥٤) ابن رشد، شعر، ص٩٢، س٣.
(٥٥) موقف ابن رشد من القصص يستحق اهتمامًا خاصًا وسأعرض له في بحث مستقل.
(٥٦) ابن رشد، شعر، ص٨٩.
(٥٧) ابن رشد، شعر، ص٩٠.
(٥٨) ابن رشد، شعر، ص٧٩، س٤.

المعروف، ولكنه يستعملها بالمعنى اللغوي الذي يفيد التخييل.(٥٩) والمشبه هو ما يعمد الشاعر إلى تخييله، وهو في صناعة المديح ثلاثة أشياء «العادات والاعتقادات والنظر؛» أما المشبه به، فهو وسائل التخييل، وهي المحاكاة والوزن واللحن.



وإذا كان المشبه أو ما يقصد إلى تخييله هو العادات والاعتقادات والنظر، فإن ما يحاكيه الشاعر إذن بالقول ليس هو الأشياء وليس هو الناس، وإنما هو ما يصدر عن الناس من أفعال وأفكار. وهذا هو أحد القوانين المهمة للمحاكاة في صناعة المديح «وإنما كانت العادات والاعتقادات أعظم أجزاء المديح لأن صناعة المديح ليست هي صناعة تحاكي الناس أنفسهم من جهة ما هم أشخاص، ناسٍ محسوسون، بل إنما تحاكيهم من قبل عاداتهم الجميلة، وأفعالهم الحسنة، واعتقاداتهم السعيدة. والعادات تشمل الأفعال والخلق.»(٦٠) وهو ينص على أن «هذا كله ليس يوجد في أشعار العرب.»(٦١)

ويمكن هنا ملاحظة الاتصال بين القانون الخلقي وقانون المحاكاة في صناعة المديح، إذ المحاكاة هنا تقوم على محاكاة عاداتهم الجميلة وأفعالهم الحسنة في حين أن المحاكاة في أغلب الشعر العربي لا تعتمد هذا النمط من المحاكاة.

---

(٥٩) «خيَّل عليه: شبَّه. . . وتخيَّل الشيء له: تشبَّه. . . وقوله تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ (سورة طه، آية ٦٦)، أي يشبه.» جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، *لسان العرب*، (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، مادة خيل، جـ١، ص ص ١٢٢٧، ٢٣٠ب، ١٢٣١. وكذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (سورة النساء، آية ١٥٧) (بمعنى خيّل إليهم، *لسان العرب*، مادة شبه).

(٦٠) ابن رشد، شعر، ص ص٧٩، ٨٠.

(٦١) ابن رشد، شعر، ص٨٠.

كذلك في ثنايا شرحه لرأي أرسطو في المحاكاة في «صناعة المديح» يذكر أن أرسطو يرى أنه قد يحدث في القليل أن توضع أشياء غير موجودة ويخترع لها أسماء ولكن هذا «ليس ينبغي أن يعتمد في صناعة المديح فإن هذا النحو من التخييل ليس مما يوافق جميع الطباع، بل قد يضحك منه ويزدريه كثير من الناس.»[٦٢] ويورد ابن رشد شاهدًا من الشعر العربي على هذا النحو من المحاكاة قول الأعشى:

لعمري لقد لاحت عيون نواظر — إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها — وبات على النار الندى والمحلق
وضيعي لبان ثدي أم، تحالفا — بأسحم داج، عوض لا نتفرق

ويصف الأبيات بأنها «من جيد ما في هذا الباب للعرب وإن لم يكن على طريق الحث على الفضيلة.»[٦٣]

وواضح في الأبيات أن الشاعر اعتمد تشخيص الندى ثم نسب إليه الأفعال. وما رآه ابن رشد حول أن المحاكاة هنا ليست «على طريق الحث على الفضيلة» يأتي من أن الأفعال هنا لا تصدر عن كائن موجود ومعروف. وهذا النوع من المحاكاة في رأيه لا يؤثر في الحث على الفضيلة «فالفعل إذا كان صادرًا من غير معروف» والفعل إذا صدر من غير معرفة ولا إرادة. فليس يدخل في باب المديح.[٦٤] وذلك أن «المديح إنما يتوجه نحو التحريك إلى الأفعال الإرادية. فإذا كانت الأفعال ممكنة، كان الإقناع فيها أكثر وقوعًا، أعني التصديق الشعري الذي يحرك النفس إلى الطلب أو الهرب.»[٦٥] وواضح هنا أن ابن رشد يشير إلى مخالفة هذا النوع من المحاكاة في الشعر العربي لما يجب اعتماده لما هو موجود في قوانين الشعر في المدح.

(٦٢) ابن رشد، شعر، ص٩٠.
(٦٣) ابن رشد، شعر، ص٩١.
(٦٤) ابن رشد، شعر، ص١٠٦.
(٦٥) ابن رشد، شعر، ص٩٠.

ونجده كذلك في موضع آخر يعد ضمن الخطأ في المحاكاة أن يحاكي الشاعر «بغير ممكن بل بممتنع» ويورد مثالاً على ذلك «قول ابن المعتز يصف القمر في تنقصه.

انـظر إلـيه كزورق من فضـة   قد أثقلتـه حمولـة من عنبر.»(٦٦)

ويلفت النظر إلى أن هذا البيت الذي يستعمله ابن رشد شاهدًا على خطأ الشاعر في المحاكاة سبق أن حاز إعجاب السامعين.(٦٧) ولكن لا يبدو أن ابن رشد غاب عنه هذا ولا غابت عن ذهنه شاعرية ابن المعتز. ولذلك فهو يلتمس لابن المعتز عذرًا «فإن هذا ممتنع، وإنما آنسه بذلك شدة الشبه، وأنه لم يقصد به حث ولا نهي.»

فالشاعر عند ابن رشد إنما «يجب أن يحاكي بما هو موجود أو يظن أنه موجود مثل محاكاة الأشرار بالشياطين، أو بما هو ممكن الوجود في الأكثر، لا في الأقل، أو على التساوي.»(٦٨) ولكن من الخطأ أن يحاكي بما هو غير ممكن أو ممتنع الوجود.

وتجدر هنا الملاحظة أن قرب التشبيه أو بعده لا علاقة له بجودة المحاكاة عند ابن رشد. فإن رفض ابن رشد للتشبيه في البيت وعَدّه مثلاً للخطأ في المحاكاة مع أنه يذكر شدة الشبه في مجال تبرير استعمال الشاعر له «إنما آنسه بذلك شدة الشبه،» يوضح أن شدة الشبه لا علاقة لها بجودة المحاكاة. فالشاعر لم يخطىء في ملاحظة المشابهة ولكنه أخطأ في أن حاكى بغير ممكن. ويوضح هذا اختلاف مفهومه للمحاكاة عن مفهوم التشبيه بدلالته البلاغية.(٦٩)

(٦٦) ابن رشد، شعر، ص١٥٩.

(٦٧) يقول مصطفى ناصف عن البيت «وقد أعجب القدماء به لأنه لا يصور إثراء الواقع بقدر ما يصور الفرار منه،» *الصورة الأدبية* (القاهرة: دار مصر، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م)، ص٦٨؛ وانظر: أبو الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، *العمدة في صناعة الشعر ومحاسنه وآدابه*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت: دار الجبل، ١٩٧٢م)، جـ١، ص٢٨٦؛ في إشارته إلى شهرة ابن المعتز في التشبيه (جـ١، ص٢٨٦)، وفي نقاشه للمقارنة بين تشبيهات ابن الرومي وتشبيهات ابن المعتز (جـ٢، ص ص ٢٣٦، ٢٣٧).

(٦٨) ابن رشد، شعر، ص١٥٩.

(٦٩) ذهب بعض الباحثين إلى أن ابن سينا وابن رشد فهما المحاكاة على أنها التشبيه بدلالاته البلاغية: انظر: ناصف، *الصورة الأدبية*، ص١٩؛ وجابر عصفور، *الصورة الفنية* (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٤م)، ص ص ١٧٨ - ١٨٠.

وأجزاء المحاكاة كما يراها ابن رشد في «صناعة المديح» هي أربع، ثلاث منها بسيطة، وواحدة مركبة. وأجزاء المحاكاة البسيطة هي: ١ ـ الاستدلال وهو «محاكاة الشيء فقط»؛[٧٠] ٢ ـ والإدارة، وهي «محاكاة ضد المقصود مدحه أولاً بما ينفر عنه النفس،[٧١] ثم ينتقل منه إلى محاكاة الممدوح نفسه»؛ ٣ ـ و«الجزء الذي يولد الانفعالات النفسانية أعني انفعالات الرحمة والخوف والحزن، وهو يكون بذكر المصائب والرزايا النازلة بالناس.»[٧٢] أما المحاكاة المركبة فهي عنده تكون عندما تستعمل الأصناف الثلاثة معًا،[٧٣] أو حين يستعمل الاستدلال والإدارة معًا.[٧٤]

ويذكر أن الاستدلال والإدارة والجزء المركب منهما قد يستعمل من جهة التخييل دون هدف الحث على عمل، وذلك حين يكون التخييل متصلاً «بالأشياء غير المتنفسة.»[٧٥] وينص ابن رشد على أن هذا النوع يغلب على أشعار العرب. ويورد مثالاً على ذلك قول أبي الطيب:

كم زورة لك في الأعراب خافية ... أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم، وسواد الليل يشفع لي ... وانثنى، وبياض الصبح يغرى بي

ويعلق على البيتين بقوله: «فإن البيت الأول استدلال، والثاني إدارة ولما جمع هذان البيتان صنفي المحاكاة كانا في غاية الحسن.»[٧٦] وارتباط البيتين وجمعهما لصنفي المحاكاة معًا يبدو

(٧٠) ابن رشد، شعر، ص٩٥، س٦.
(٧١) غيرت علامات الترقيم في هذه العبارات عما هو موجود في (تحقيق سالم، شعر، ص٩٥) (وتحقيق عبدالرحمن بدوي، *فن الشعر*، ص٢١٦، س٦) لأن هذا التغيير يجعل فهم ما أراده ابن رشد من «الإدارة» واضحًا دون لبس.
(٧٢) ابن رشد، شعر، ص٩٧، س س ٤ ـ ٦.
(٧٣) ابن رشد، شعر، ص١٠٠، س س ١ ـ ٣.
(٧٤) ابن رشد، شعر، ص٩٤، س٨.
(٧٥) ابن رشد، شعر، ص٩٦، س س ١، ٢.
(٧٦) ابن رشد، شعر، ص٩٦.

أنـه هو نمـوذج صنف المحـاكاة المركبة(٧٧) التي يختلط فيها الاستدلال بالإدارة «وأحسن استدلال ما خلط بالإدارة.»(٧٨) وعند تطبيق تعريف ابن رشد للاستدلال والإدارة نجد البيت الأول تبـدو فيه محاكـاة الزيارة فقط؛ أما البيت الثاني فيظهر فيه أولاً محاكاة الليل والظلام الذي يُغيِّب هذه الزيارة ثم تظهر محاكاة ضد ذلك في الشطر الثاني، نور الصباح أو البياض الذي يعلن هذه الزيارة.

ويبدو أن هذا الشاهد يبرز أحد صور الاختلاف في المحاكاة في الشعر العربي عنها في القوانين الكلية حيث يظهر استعمال الإدارة والاستدلال غير متصلين بالحث على عمل أو فضيلة.(٧٩) وهـو يذكـر أن أفضـل استعـمالات الاستـدلال والإدارة إنما يكون للأفعال الإرادية، «وأكثر ما يوجد هذا النوع في (الكتاب العزيز) وهو قليل في أشعار العرب» ويرى أن «مثال الإدارة في المدح قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ إلى قوله ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، ومثال الاستدلال قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾، الآية.»(٨٠)

أمـا جزء المحـاكـاة الخـاص بالانفعـالات النفسية وهو ما يتصل دومًا بالحث على الفضائل فلا يوجد في أشعار العرب، وإنما يوجد في قصص القرآن الكريم مثل قصة إبراهيم عليه السلام وما أُمر به من ذبح ابنه.(٨١)

(٧٧) تجدر الملاحظة أن البيت الثاني:

أزورهـم وسـواد الـليل يشـفـع لي وأنـثـني وبياض الصبـح يغـري بي

يكثر وروده في كتب التراث البلاغي شاهدًا للمقابلة بين خمسة أشياء في حين أن ابن رشد يستعمل البيتين معًا شاهدًا يوضح فيه أجزاء المحاكاة، وواضح أن ابن رشد هنا يعبِّر عن فهمه الخاص للمحاكاة. وأن هذا البيت لا يمتُّ بصلة إلى ما استعمل البيت فيه شاهدًا من قبل. انظر: ابن سنـان الخفاجي، *سر الفصاحة* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م/ ١٤٠٢هـ)، ص٢٠٩.

(٧٨) ابن رشد، شعر، ص٩٥، س٨.

(٧٩) انظر أيضًا حديثه عن القصص الشعري حيث يشير إلى شواهد تخلو من الحث على الفضيلة في الشعر العربي: ابن رشد، شعر، ص٢٤. ويقول «إنما يوجد هذا النحو من التخييل للعرب: إما في أفعال غير عفيفة وإما فيما القصد منه مطابقة التخييل فقط.»

(٨٠) ابن رشد، شعر، ص١٢٣، وانظر الآيات ٢٤ ـ ٢٦ من سورة إبراهيم، وآية ٢٦١ من سورة البقرة.

(٨١) ابن رشد، شعر، ص ص١٠٥، ١٠٦.

بعض ظواهر تشيع في الشعر العربي

عندما يسرد ابن رشد أنواع الاستدلالات[٨٢] ويقصد بها المحاكاة البسيطة «محاكاة الشيء فقط،»[٨٣] يشير إلى أنواع يرى أنها شائعة في الشعر العربي بوجه خاص.

١ - يظهر ضمن هذه الأنواع إقامة الجماد مقام الناطق، حيث يذكر أن هناك موضعًا مشهورًا يستعمله العرب وهو إقامة الجمادات مقام الناطقين في مخاطباتهم ومراجعتهم إذا كانت فيها أحوال تدل على النطق،[٨٤] ويجعل «من هذا الباب مخاطبتهم الديار والأطلال ومجاوبتهم إياها.»[٨٥] ويورد شواهد ثلاثة منها الأبيات التالية للمجنون:

وأجهشت للتوباد لمَّا رأيته وكبر للرحمن حين رآني
فقلت له أين الذين عهدتهم حواليك في أمن وخفض زمان
فقال: مضوا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

هنا ابن رشد يشير إلى شيوع التشخيص في الشعر العربي القديم عند الحديث عن الأطلال.

وهذه الإشارة إلى التشخيص تتكرر عنده غير مرتبطة بالأطلال في شرحه لكتاب *الخطابة*، فابن رشد يذكر رأي أرسطو أنه «من الجيد في التغيير الذي يكون في الأفعال، . . . أن يجعل الأشياء التي توصف أفعالها إذا كانت غير متنفسة حتى يخيل في أفعالها أنها أفعال المتنفسة.» ويورد شاهدين من الشعر المحدث، أحدهما للمعري يتحدث فيه عن الرمح:

توهم كل سابغة غديرًا فرنق يشرب حلق الدِّخالا

والآخر لأبي الطيب يتحدث فيه عن السيف:

إذا ما ضربت به هامة براها وغناك في الكاهل

ويعلق على الشاهدين بقوله «وهذا كثير في أشعار العرب، أعني جعلها الاختيار والإرادة لغير ذوات النفوس.»[٨٦]

(٨٢) ابن رشد، شعر، ص١١٢.
(٨٣) ابن رشد، شعر، ص٩٥، س٥.
(٨٤) ابن رشد، شعر، ص١٢١.
(٨٥) ابن رشد، شعر، ص١٢٢.
(٨٦) ابن رشد، *الخطابة*، تحقيق بدوي، ص ص٢٩٥، ٢٩٦.

ولعل أبيات الأعشى التي سبق ذكرها والتي يبدو فيها تشخيص الندى ليست بعيدة عما يذكره هنا، وكذلك بيتي المتنبي السابقين «كم زورة . . .» اللذين أوردهما شاهدًا على استعمال الاستدلال والإدارة في غير المتنفسة. وملاحظة ابن رشد هذه لكثرة التشخيص أو التسجيم في الشعر العربي ـ وإن كان لم يستعمل هذا اللفظ ـ تستدعي إعادة التفكير فيما ذهب إليه بعض الدارسين من الربط بين النقد الموجه لاستعارات المحدثين، خاصة استعارات أبي تمام، وكراهية النقاد القدامى الإيغال في التشخيص أو التجسيم.[٨٧]

٢ ـ ويظهر من هذه الأنواع التصديق والإقناع، فابن رشد يذكر أن هناك نوعًا آخر من الشعر، ويوضحه بأنه «الأشعار التي هي في باب التصديق والإقناع أدخل منها في باب التخييل، وهي أقرب إلى المثالات الخطبية منها إلى المحاكاة الشعرية.» وينص ابن رشد على أن هذا الجنس كثير في شعر أبي الطيب ويورد قوله: «ليس التكحل في العينين كالكحل،» وقوله: «في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل» كما يورد قول أبي فراس الحمداني:

ونحن أناس لا توسط عندنا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ... ومن خطب الحسناء لم يغله المهر

(٨٧) يقول مصطفى ناصف، «وقد توهم الآمدي، توهم ابن المعتز وأصحاب الطبع وعمود الشعر أن التجسيم في الشعر العربي الذي يقاس على فصاحته قليل،» *الصورة الأدبية*، ص١٠٠، ويرد «الموقف النقدي الذي يرفض التجسيم إلى «المتعارف من معاكسة الفن الإسلامي تصوير الكائنات الحية،» ص ص ١٠٢، ١٠٣.

ويشير جابر عصفور إلى رفض الآمدي «ما يتبدى في استعارات أبي تمام من تجسيم للمعنوي وتشخيص للمجرد،» *الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي* (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٤م)، ص٢٦٢. ويرد كراهية النقاد القدماء الذين رفضوا مثل هذه الاستعارات إلى أساس ديني، *الصورة الفنية*، ص٢٨٧؛ وكذلك «قراءة في ابن المعتز،» *مجلة فصول* (تراثنا النقدي، جـ١)، م٦، ع١ (١٩٨٥م)، ص١٢١. ومع ذلك فإن الربط بين الاعتقاد الديني ورد رفض النقاد للتشخيص أو التجسيم في استعارات أبي تمام المتعلقة بالدهر لا يبدو مقنعًا تمامًا، ذلك أن الآمدي نفسه يمتدح بيتين لأبي تمام ورد في شطر أحدهما قوله «كأن الدهر عنا في وثاق» حيث يبدو تشخيص أو تجسيم الدهر في سياق حلم الإنسان بالانتصار عليه. انظر: أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، *الموازنة*، حقق أصوله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٣ (القاهرة: المكتبة التجارية، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م)، ص٢٣٨.

ويصفه بأنه «من أحسن ما في هذا المعنى.»(٨٨)

ويبـيِّن ابن رشد في كتاب *الخطابة* أن الفرق بين الصناعتين الشعرية والخطبية أن «الخطبية إنما يقصد بها وقوع غلبة الظن، والشعرية حصول التخييل نفسه.»(٨٩) وهو يقول عن المثال في الخطابة إنه شبيه بالاستقراء في الجدل.(٩٠) كما يذكر «أن كل تصديق فإنه يكون بالقياس وأن الاستقراء والمثال إنما يفيدان التصديق بما فيهما من قوة القياس.»(٩١) وإذن فإن ما هو موجود في الشواهد الشعرية السابقة كان تمثيلاً يستدعي الإقناع أو هو نوع من أنواع التصديق عن طريق القياس. ذلك أن شطري البيتين السابقين للمتنبي، كذلك الشطر الأخير من بيتي أبي فراس تحمل كلها تمثيلاً يوضح ما سبقها من قول بطريقة تشابه ما يحدث في الخطابة، بغض النظر عن صدق القياس أو عدم صدقه. وشواهده هنا إنما تقوم على العلاقة بين التمثيل وما سبقه من قول.(٩٢)

ولا يبدو في كلام ابن رشد ما ينفي الشعرية كلية عن الأبيات السابقة لأبي الطيب وأبي فراس ولكن يذكر أن فيها نوعًا من الطرق الخطبية في القول.(٩٣) وقد تكون ملاحظة

(٨٨) ابن رشد، شعر، ص١١٦.

(٨٩) ابن رشد، *الخطابة*، ص٢٥٢.

(٩٠) ابن رشد، *الخطابة*، ص٢١٢.

(٩١) ابن رشد، *الخطابة*، ص١٩.

(٩٢) يرد هذا النمط في التراث النقدي للشعر على أنه من التمثيل. يقول عبدالقاهر الجرجاني «واعلم أن ما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة وكسبها منقبه» وقد أسهب عبدالقاهر في الحديث عن هذا النمط وإيضاحه. والأمثلة التي يوردها مأخوذة في الكثير منها من الشعر وقد قارن عبدالقاهر بين التمثيل والتشبيه والفرق بينهما ولكنه لم يعرض إلى ما يذكره ابن رشد هنا من تفرقة تفيد مدى اختلاف الشعرية في هذه الأمثلة عن غيرها، *أسرار البلاغة*، تحقيق هـ. ريتر، ط٢ (القاهرة: مكتبة المتنبي، ١٩٧٩م/ ١٣٩٩هـ)، ص ص١٠٢ ـ ١١٢.

(٩٣) يرى ابن رشد مثله مثل الفارابي وابن سينا أن بعض الأقاويل الخطبية توجد في الشعر، وبعض الأقاويل الشعرية توجد في الخطابة، ابن رشد، *الخطابة*، ص٢٦٢؛ وراجع: الفارابي، «جوامع الشعر» ضمن كتاب *تلخيص كتاب الشعر*، لابن رشد، ص١٧٣؛ س١١؛ وابن سينا، *الشفاء المنطق ٨ ـ الخطابة*، تحقيق محمد سليم سالم (القاهرة: الإدارة العامة للثقافة، ١٩٥٤م/ ١٣٧٣هـ)، ص٢٠٤؛ وانظر أيضًا: الروبي، نظرية، ص ص ١٧٩ ـ ١٩٢.

ابن رشد هذه هي التي فتحت الطريق لحازم القرطاجني فيما بعد أن يتوسع في إشارته إلى تداخل المحاكاة والإقناع في فصول القصيدة.[٩٤]

٣ ـ ويظهر ضمن هذه الأنواع «الغلو الكاذب» وهو يذكر أن هذا النوع «يستعمله السوفسطائيون من الشعراء وهو كثير في أشعار العرب والمحدثين.»[٩٥] وضمن شواهد الشعر القديم يورد قول النابغة:

تقدُّ السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب

ويعلق عليه بقوله: «وهذا كله كذب» كما يورد بيتين للمتنبي:

عدوك مذموم بكل لسان ولو كان من أعدائك القمران

لو الفلك الدوار أبغضت سيره لعوقه شيء عن الدوران[٩٦]

ويعلق ابن رشد على الشواهد كلها «وهذا كثير موجود في أشعار العرب وليس تجد في الكتاب العزيز منه شيئًا، إذ كان يتنزل من هذا الجنس من القول، أعني الشعر، منزلة الكلام السوفسطائي من البرهان.»[٩٧]

إن كون هذا النوع كاذبًا كما يقول عنه «وهذا كله كذب» وأنه «بمنزلة الكلام السوفسطائي» إنما يشير إلى أن الشعرية عنده تتنافى مع الكذب. ورفض ابن رشد الغلو، متصل برأيه في قوانين المحاكاة في الشعر أنها تكون لموجود أو لممكن الوجود. أما إذا تجاوزت المحاكاة هذا القدر صارت من الكذب الذي يتنافى مع الشعرية، والكذب هنا هو ما يتناقض مع حكم الحس والعقل، ذلك أن المحاكاة لممكن الوجود لاتدخل في عداد هذا الكذب إذ هي لا تنافي مع حكم الحس والعقل.

(٩٤) ابن سينا، *منهاج البلغاء*، ص٣٦٣، س س١ ـ ٤؛ ص ص ٣٦١، ٣٦٢.
(٩٥) ابن رشد، شعر، ص١١٩.
(٩٦) ابن رشد، شعر، ص١٢٠.
(٩٧) ابن رشد، شعر، ص١٢١.

والموقف من الغلو ورفضه موجود في التراث النقدي. وقد أورد قدامة بن جعفر الجدل حول الغلو، وإن كان هو نفسه أيد الغلو ما لم يصل إلى حد الممتنع.(٩٨) كما نجد ابن رشيق في القرن الخامس الهجري يورد الجدل حول الغلو ويصف الغلو بأنه كذب، وينتقد المتنبي انتقادًا شديدًا فيما يذهب إليه من الغلو.(٩٩) ولكن الذي نجده متميزًا عند ابن رشد يظهر في نصه على كثرة وجود الغلو «الكاذب» في أشعار العرب، سواء القدماء منهم أو المحدثين، وأنه في تنظيره للشعر يجعل «الغلو الكاذب» ليس من الشعرية في شيء مثلما أن الكلام السوفسطائي ليس من البرهان في شيء.

ومع ذلك فقد استثنى ابن رشد من حكمه هذا أنه قد يوجد للمطبوع من الشعراء شيء محمود من الغلو واستشهد بأبيات للمتنبي منها هذان البيتان اللذان يصف فيهما سير رسول ملك الروم إلى سيف الدولة.

وأنى اهتدى هذا الرسول بأرضه   وما سكنت منذ سرت فيها القساطل

ومن أي ماء كان يسقي جياده   ولم تصف من مزج الدماء المناهل(١٠٠)

ولم يبيِّن ابن رشد السبب الذي جعل الغلو هنا محمودًا. ولكن هذا الاستثناء يرد على أنه شيء يشذ على القاعدة وليس على أنه يغير حكمه فيها.

---

(٩٨) قدامة بن جعفر، *نقد الشعر*، تحقيق س. ا. بونيباكر (ليدن: بريل، ١٩٥٦م)، ص ص ٢٤ - ٢٨.

(٩٩) ابن رشيق، *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٨٣هـ)، جـ٢، ص ص ٦١ - ٦٤. وتجدر الملاحظة أن جبريلي درس شواهد ابن رشد من حيث علاقة ابن رشد بالتراث العربي في الشعر والنقدي الأدبي. انظر: F. Gabrieli, "Estetica e poesia araba nellinterprettazione della poetica Aristotelica presso Avicenna e Averroe," *Rivista degli Studi Orientali*, 12 (1929-30), 291-331.
وهنا أشكر الزميلة زينب الشيرازي التي ترجمت لي (شفويًّا) المقالة عن الإيطالية.

(١٠٠) ابن رشد، شعر، ص١٢١.

موقف النقد العربي من ابن رشد

إن ما يمكن أن يخرج به القارىء المتأمل لتلخيص ابن رشد هو الشعور بقصور الشعر العربي أو شذوذه عن القوانين الكلية للشعر. وهذه الصورة العامة التي تسم الشعر العربي بالقصور من «الشعرية» الموجودة للأمم الطبيعية هي ما جعلت ـ في غالب الظن ـ كتاب ابن رشد لا يذكره كثير ممن جاء بعده. ولم يخفف من ذلك على ما يبدو إشارات ابن رشد المتناثرة لأمثلة من الشعر العربي وصفها بالجودة وأنها تطابق بعض قوانين الشعر الكلية كما هي موجودة في تلخيصه. لقد أشار إحسان عباس أنه، مع كون ابن رشد حاول أن يجعل لكتاب الشعر فائدة عملية لدى كل من الشاعر والناقد، فإن أكثر الذين تحدثوا عن قضايا الشعر من الأندلسيين في القرن السابع لم يلتفتوا إلى ما صنع.[١٠١] ويلفت النظر أكثر من ذلك أن ثلاثة من النقاد الذين جاءوا بعد ابن رشد في المغرب العربي، والذين ظهر التأثر بكتاب أرسطو بصورة أو بأخرى في كتاباتهم، لم يرد لابن رشد أي ذكر لديهم. وهؤلاء النقاد هم حازم القرطاجني (ت٦٤٨هـ) في كتابه *منهاج البلغاء وسراج الأدباء*، والسجلماسي (ت٧٠٤هـ) في كتابه *المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع*، وابن البناء المراكشي العددي (ت٧٢١هـ) في كتابه *الروض المريع في صناعة البديع*.

إن المتأمل لهذه الكتب يمكن أن يجد أثرًا من ابن رشد وبخاصة في الكتابين الأولين. إن كتاب حازم يبدو فيه أثر ابن رشد سلبًا وإيجابًا وسأبين ذلك فيما بعد. كذلك فإن السجلماسي في حديثه عن «التناسب» يبدو بوضوح تام أنه ينقل نقلاً عن ابن رشد في التفصيلات التي أوردها عن التناسب.[١٠٢] وهذه التفصيلات خاصة بابن رشد في ثنايا

---

(١٠١) عباس، *تاريخ النقد*، ص٥٣٠.

(١٠٢) أبو محمد القاسم الأنصاري السجلماسي، *المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع*، تقديم وتحقيق علال الغازي (الرباط: مكتبة المعارف، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م)، ص ص ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠؛ وقارن بابن رشد، شعر، ص ص ١٤٨، ١٤٩؛ ط بدوي، *فن الشعر*، ص ٢٤١، ٢٤٤؛ وكذلك: ابن رشد، *الخطابة*، تحقيق بدوي، ص٢٩٤.

حديثه عن اللغة لا يشاركه فيها ابن سينا. ولكن السجلماسي يشير إلى كتاب الشعر لأرسطو دون أن يذكر ابن رشد.[١٠٣]

أما ابن البناء العددي فهو وإن كان في كتابه يبدو أثر شراح كتاب أرسطو في مفهوم الشعر وفي كثير من المصطلحات،[١٠٤] إلا أنه يتخذ أساسًا موقفًا من الشعر مخالفًا كل المخالفة لموقف ابن رشد كما يخالف موقف حازم القرطاجني والسجلماسي. ذلك أن ابن البناء العددي يجعل الشعر في مكانة منحطة فهو يراه خارجًا عن باب العلم وداخلاً في باب الجهل،[١٠٥] لكونه مبنيًّا على الكذب. وتعريفه له بأنه «الخطاب بأقوال كاذبة مخيلة على سبيل المحاكاة يحصل عنها استفزاز بالتوهمات.[١٠٦] ومن الواضح هنا أن التخييل مرتبط عنده بالخداع. وتدني مكانة الشعر على هذا الأساس عند ابن البناء العددي تجعله في موقف معاكس تمامًا لموقف ابن رشد الذي لا يرى الشعر قرينًا للكذب، وإنما يرى للشعر مكانة سامية تجعله يشعر بالأسى أن الشعر العربي في أكثره لم يصل إليها. ومن هنا لا يبدو غريبًا أن يهمل ابن البناء ذكر ابن رشد.

وعند التوقف عند حازم القرطاجني يمكن القول: إن ابن رشد أوحى إلى حازم في أكثر من موضع من كتابه أن يتوسع في أشياء أشار إليها ابن رشد في تلخيصه بإيجاز.

---

(١٠٣) السجلماسي، *المنزع البديع*، ص ص ٥١٦، ٥١٧؛ وانظر أيضًا إشارته إلى أرسطو وكتابي «الخطابة» و«الشعر» في حديثه عن الإبدال، ص٨٤؛ وإشارته إلى الفارابي وكتابه *الحروف*، ص٤٨٢.

(١٠٤) انظر: ابن البناء المراكشي العددي، *الروض المريع في صناعة البديع*، تحقيق رضوان بنشقرون (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ١٩٨٥م)، ص٨٢، حيث يفرق بين ما يطلق عليه أهل العرف اسم الشعر وهو يشمل المنظوم كله، وبين الشعر وهو يختص بما يحتوي على التخييل سواء كان منظومًا أو غير منظوم. وهو في هذا يتفق ظاهريًّا مع مفهوم الفلاسفة للشعر وللقول الشعري؛ وانظر ص ص ١٠٣ و١٠٤ على سبيل المثال حيث يشير إلى المحاكاة وإلى التبديل.

(١٠٥) العددي، *الروض*، ص٨١.

(١٠٦) العددي، *الروض*، ص٨١.

إن شواهد ابن رشد حول وجود أنماط من الاستعمالات في الشعر العربي هي أقرب إلى المثالات الخطبية وإشارته إلى وجود هذا النوع بكثرة عند أبي الطيب المتنبي، فتحت الباب لحازم كي يتوسع في هذا الموضوع. لقد نص حازم القرطاجني على أن التخييل والمثالات الخطبية قد يجتمعان معًا في بيت واحد «فالأقاويل التي بهذه الصفة خطابية بما يكون فيها من إقناع، شعرية بكونها متلبسة بالمحاكاة والخيالات.»(١٠٧) كما طبق حازم هذه الفكرة على القصائد العربية ورأى أن التخييل والإقناع يتخذان نظامًا معينًا في فصول القصائد ويضرب مثالاً على ذلك بعض قصائد المتنبي.(١٠٨)

وحديث ابن رشد عن الغلو الكاذب واستثنائه منه أنه «قد يوجد للمطبوع من الشعراء منه شيء محمود» واستشهاده على ذلك ببيتين للمتنبي جعل حازمًا يورد البيتين نفسهما ويناقش الغلو من خلالهما. ولقد انتهى إلى أن ما يميز بينهما وبين الغلو الكاذب هو أنهما يقعان في دائرة الممكن.(١٠٩)

ولعل القسمة الثنائية التي استعملها ابن رشد في قسمة كل شعر وكل قول شعري إلى مدح وهجاء هي ما أوحى إلى حازم بقسمة أخرى ثنائية للشعر هي الجد والهزل «والشعر ينقسم أولاً إلى طريق جد وطريق هزل.»(١١٠) وهذه القسمة أتاحت لحازم أن يجعل الشعر

(١٠٧) ابن سينا، *منهاج*، ص٦٧.

(١٠٨) ابن سينا، *منهاج*، ص٢٩٣.

(١٠٩) ابن سينا، *منهاج*، ص ص٣٣٥، ٣٣٦.

(١١٠) ابن سينا، *منهاج*، ص٢٣٧، يصعب هنا أن نرد ما رآه حازم من قسمة الشعر «إلى طريق جد وطريق هزل» إلى فكرة المأساة والملهاة عند أرسطو فحازم هنا لا يتحدث عن أنواع الشعر وإنما عن طريقين عامين للشعر. وقد ربط جابر عصفور قسمة الشعر هذه عند حازم القرطاجني برأي الفارابي حول علاقة الفن بالسعادة القصوى، *مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي* (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٨م)، ص٢٨٤. ومع أن هذا الربط له ما يبرره، فالفارابي يذكر أن «الأقاويل الشعرية منها ما يستعمل في الأمور التي هي جد ومنها ما شأنها أن تستعمل في أصناف اللعب.» *كتاب الموسيقى الكبير*، ص١١٨٤. لكن هذا لا ينفي احتمال أن تكون القسمة الثنائية الحادة التي درج عليها ابن رشد هي ما أوحى إلى حازم بقسمة ثنائية حادة في قوله «والشعر ينقسم أولاً إلى طريق جد وطريق هزل.»

العربي يستوعب الأشعار التي تتنافى مع الأخلاق في جانب الهزل منه. ذلك أنه «يجب في معاني الطريق الجدية أن تكون النفس فيها طامحة إلى ذكر ما لا يشين ذكره ولا يسقط من مروءة المتكلم.»(١١١)

على أن ما يلفت النظر حقًّا عند حازم القرطاجني في كتابه *منهاج البلغاء وسراج الأدباء* هو أن الكتاب يحمل في أكثر من موضع منه نوعًا من الرد على ما رآه ابن رشد قصورًا في الشعر العربي.

ومن الأمثلة على ذلك أنه إذا كان ابن رشد رأى في الشعر العربي قصورًا أو شذوذًا عن القوانين الكلية للشعر التي جاءت في كتاب أرسطو (راجع ما سبق)، فإن حازمًا رأى في الشعر العربي اتساعًا «في المحاكيات الشعرية» غير ما حواه شعر اليونان، ولذلك «وجب أن توضع لها من القوانين أكثر مما وضعت الأوائل.»(١١٢) يقول حازم «ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظًا ومعنًى... وحسن مآخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية.(١١٣)

وإذا كان ابن رشد رأى في الشعر العربي قصورًا لأنه يخلو من محاكاة الأفعال الإرادية فأكثره إنما يحاكي الذوات، فإن حازمًا رأى أن الشعر اليوناني هو الذي يحمل قصورًا. يقول حازم: «فإن أشعار اليونانية إنما كانت أغراضًا محدودة في أوزان مخصوصة ومدار جلِّ أشعارهم على خرافات كانوا يضعونها... فأما غير هذه الطرق فلم يكن لهم فيها كبير تصرف كتشبيه الأشياء بالأشياء، فإن شعر اليونانيين ليس فيه شيء منه وإنما وقع في كلامهم التشبيه في الأفعال لا في ذوات الأفعال.»(١١٤)

(١١١) ابن سينا، منهاج، ص٣٢٩.
(١١٢) ابن سينا، منهاج، ص٦٨.
(١١٣) ابن سينا، منهاج، ص٦٩.
(١١٤) ابن سينا، منهاج، ص ص٦٨، ٦٩.

وإذا كان ابن رشد رأى في الشعر العربي قصورًا عن الهدف الخلقي ، فإن حازمًا يقول هنا عن العرب (ومصطلح العرب هنا أيضًا يشير إلى القدماء) أنهم «اتخذوا الكلام المحكم نظمًا ونثرًا للوعظ والحض على المصالح . » وليس يعني الاهتمام بالحض «على المصالح» قصورًا في الناحية الفنية في أشعار العرب ، إذ حازم يرى أيضا أن «العرب انتهت من إحكام الصنعة الجديرة بالتأثير في النفوس إلى ما لم تنته إليه أمة من الأمم . »(١١٥)

وعلى هذا نجد عند حازم أن ما استخلصه ابن رشد من كتاب أرسطو على أنه من القوانين الكلية التي يجعلها معيارًا للشعر ليست هي المعيار الصحيح لأشعار العرب . ويبدو في عبارات حازم فيما يتعلق باهتمام العرب بالشعر وما تميزت به لغتهم من ميزات ما يذكر بموقف ابن قتيبة وغيره من العلماء الذين دافعوا عن العرب وعن الشعر أمام هجوم الشعوبية . وإذا كان ابن رشد قد وسم الشعر العربي بالقصور فقد بدا كمن يمس العرب أنفسهم بالقصور عن بقية الأمم . ولعل هذا هو السبب في أن حازمًا تجاهل إيراد اسم ابن رشد مع أنه يشير مرارًا إلى ابن سينا وأشار إلى الفارابي مرتين .

(١١٥) ابن سينا ، منهاج ، ص١٢٢ .

Averroes' Poetics: Theory and Application

A Study in Averroes' Middle Commentary on Aristotle's Poetics, and His Effort to Apply It to Arabic Poetry

Suaad A. Al-Mana
Assistant Professor, Department of Arabic Language,
College of Arts, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. Scholars have considered Averroes' attempt to apply Aristotle's poetics to Arabic poetry as a remarkable effort compared to his predecessors al-Fārābī and Avicenna. At the same time, they observed the Averroes' application showed his misunderstanding of Aristotle's poetics.

Thus, the present study will not discuss how far Averroes understood or misunderstood Aristotle's poetics. Instead it would touch upon both Averroes' poetical theory inspired by Aristotelian traditions, and his citations from Arabic poetry used to explain this theory.

This study, will then deal with the concept of the term poetics from Averroes' perspective. It will also discuss the agreement and disagreement between what is common in Arabic poetry and what represents general rules of poetry from his point of view, and trace his thoughts in the Arabic literary criticism influenced by Aristotelian traditions in the two centuries following Averroes.